درس الجيولوجيا

بقلم حسين شوقى

هى أيضا ذكرى من ذكريات الصبى والدراسة ، وقعت حوادثها ببرشلونة . عندما دخلت المدرسة الأسبانية ، وحضرت درس الجيولوجيا للمرة الاولى ، رأيت المدرس قبل البدء فى الدرس ، يقترح رحلة جبلية فى يوم الأحد المقبل ، ولكنى لحظت فى استغراب ودهشة ان الطلبة يتهربون منها ، لذلك أخذ المدرس يختار لهذه الرحلة من يختار دون رضا ولا موافقة ، فقلت للطالب الذى يجلس عن يمينى ، وهو فتى اسبانى من الجنوب (الأندلس) ، تدل سمرة جلده على أصله العربى ؛ لماذا يرفضون وانما يذهبون الى النزهة وتسلق الجبال الشاهقة ؟ . فأجابنى فى ابتسامة خبيثة : أتريد أن تذهب أنت ؟ فأجبته على الفور : أجل ! ولم لا ؟ فرفع زميلى أصبعه مستأذناً فى الكلام ، فلما سمح له المدرس به أطلعه على رغبتى ، فنظر الى المدرس نظرة الرضا والارتياح وقال: حسن ! حسن جداً ! ثم سألنى فى لطف عن اسمى لانى كنت طالبا جديدا فأثبته فى القائمة ، ثم استفهم عن جنسيتى التى استغربها لانى الشرقى الوحيد فى المدرسة . .

وعند ماعرف الطلبة انى اريد المشاركة فى رحلة يوم الأحد عن رضا وطواعية ، أخذوا يتغامزون وينظر بعضهم الى بعض ، فاضطربت لذلك ولم أعرف سبب هذا التغامز والأسفاه الا أخيرا .

وفى يوم الأحد كنت فى المكان المعين للمقابلة ، قبل الموعد بزمان طويل ، لانى كنت مشتاقا الى هذه الرحلة الجبلية مع رفاقى الطلبة على رغم ماكان يحيط بها من الأسرار . ثم حضر المدرس وتبعه الطلبة واحدا بعد آخر . . وكنا جميعا عشرة ، فركبنا الترام فخرج بنا فى أقل من ساعة الى ظاهر المدينة . . وكنا أثناء سير الترام وفى غفلة من الاستاذ ، نخرج ألسنتنا للمارين ، فيمطروننا وابلا من اللعنات والشتائم .

ثم أخذنا نتسلق الجبال وبعد جهد جاهد بلغنا أعلى القمة فى تلك المنطقة المعروفة بسانتا كروث (الصليب المقدس) وقد قام فيها صليب كبير من الخشب ، بركة لعابرى السبيل . عند ذلك شاهدنا منظرا للمدينة يملك الطرف ويصبى المشاعر ، والبحر الابيض يموج فى جلبابه الأزرق الفضفاض ، والجو يعبق برائحة عطرية كأنها تسربت من الفردوس . أما السحاب فكان قريبا منا الى حد أننى كنت أخشى أن جنيا يبدو منه فجأة فيخطف أحدنا على سبيل المزاح ! واذا كان سرورى عظيما بجمال الطبيعة فى تلك الساعة ، فان فرحى كان أعظم بالفراش الأصفر الكبير الذى شاهدته يتنقل فى الخضرة والحشائش من غصن الى غصن ، وكأنه فى حسنه زهور (البانسيه) ، لأنى كنت كرفاقى مولعا باقتناء الفراش وحفظه بالمنزل فى علب خاصة غطاؤها من الزجاج . . ولكن ظهر انى كنت واهما حين ظننتنى سأصطاد ماشاء من هذا الفراش ، لانى حضرت الى درس جيولوجيا فى هذا المكان لا الى اللهو والتسلية ! وكان ذلك سبب ضحك الطلبة فى الفصل حينما تقدمت من ذات نفسى للاشتراك فى تلك الرحلة ! اذ أمرنا المدرس بالتقاط ما يصادفنا

سلبى منفعل - هو الجانب المادى منها - وبقدر ماترجح كفة الجانب الفعال كانت الذرة أدنى الى الكمال ، ولذلك ترى كل ذرة لا تفتأ تسعى جهدها لكى تتغلب على جانبها المادى السلبى الذى يقعد بها عن السمو فى سبيل الكمال . والانسان — ككل شىء آخر — لا يدخر وسعا فى هذا الجهاد العنيف الشاق . وهذا الجهاد نفسه الذى لامناص منه بحكم طبيعة التكوين الذرى — هو أصل الشر وسبب البلاء . فالشر إذن نقص نشأ عن محاولة التخلص من قيود المادة ، فكأنه لم يوجد إلا ليكون سلما للصعود نحو الكمال الاسمى . وعلى هذا الاعتبار يكون الشر وسيلة للخير ! ! أضف إلى ذلك أن وجود الشر إلى جانب الخير ، مما يعمل على جمال الحياة ، التى كانت تقل عما هى الآن كمالا وجمالا لو أنها لا تحوى إلا خيرا محضاً . ومن ذا الذى يتمنى حياة لا ألم فيها ، تجىء على صورة واحدة لا اختلاف فيها ؟ ثم يذكر ليبنتز أن الخير هو الجانب الايجابى من الحياة ، والشر هو الجانب السلبى منها ، ولما كان الله تعالى لم يخلق — بداهة — الا الجانب الايجابى ، فلا يمكن أن يعد سببا فى وجود الناحية السلبية . ولا يمكن أن يكون الله خالقا لما نرى فى الحياة من شرور وآلام .

زكى نجيب محمود